

## المحاضرة 04: الاتجاه التاريخي في المسرح الجزائري

### تمهيد:

تعد فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فترة صحو وبقظة وتحول فكري وثقافي وسياسي في الجزائر، وسبب هذا التحول هو نمو الروح الوطنية لدى الجزائريين، واشتداد الحركة الوطنية الجزائرية، مع شمول فكرة محاربة الاستعمار الفرنسي وسياسته بكل الوسائل والطرق الممكنة، وبمشاركة كل الفئات الاجتماعية، ولقد امتازت هذه الفترة أيضا بنشاط الأدباء الذين كتبوا في فن المسرح وإن لم يكونوا من المتخصصين، ومن الملاحظ أن المسرحيات المؤلفة يغلب عليها الطابع الإصلاحية، ويشمل هذا التوجه المسرحيات الاجتماعية والدينية والسياسية والتاريخية، هذه الأخيرة التي بدأت بوادها قبل الثورة التحريرية واستمرت إلى ما بعد الاستقلال.

### أولا - موضوعات من التاريخ القديم للمنطقة.

لا عجب أن تكون انطلاقة المسرح الجزائري مع التاريخ، إذ قدم جورج أبيض أثناء زيارته للجزائر سنة 1921م مسرحيتين تاريخيتين لنجيب الحداد\* أثرت أيما تأثير في المثقفين الجزائريين ودفعتهم إلى الإبداع والتأليف في هذا الفن، ومن المسرحيات التاريخية التي ألفت في ذلك الوقت مسرحية "جحا" لعلالو، و"طارق بن زياد" لمحمد صالح بن عتيق، و"صنيعة البرامكة" و"عنبسة" لأحمد رضا حوحو، و"الأمير بأحكام الله"، و"يزيد بن أبي صفر" لأحمد بن ذياب، و"أبو محجن وأبو جعفر المنصور والشعراء" لموسى الأحمدى نويرات... الخ.أ

ولأن الاستعمار الفرنسي حاول قطع الصلة بين الجزائريين وتاريخهم القديم والحديث، فقد انكب ثلة من الكتاب على تاريخ الجزائر القديم لبعثه وإحيائه في كتاباتهم المسرحية، وكانت غايتهم وهدفهم الأسمى هو إحياء تاريخ هذه الأمة واستحضار أبطاله للاقتداء بهم واحتذاء آثارهم، ولقد كانوا «يرمون إلى غاية محددة، هي تنبيه الجماهير في الجزائر لكي يلموا بماضي الأجداد وبطولاتهم وأعمالهم العظيمة والتذكير بها، وذلك من شأنه أن يوقظ في النفس الحمية الوطنية، ويقذف في القلوب شعلة من النور الذي ينبثق عنه إيمان بالماضي الذي هو منطلق لعمل الحاضر، ومتطلع إلى المستقبل»<sup>ii</sup>.

وهذا الاهتمام البالغ بالتاريخ، واستحضاره في الكتابة المسرحية الجزائرية يؤكد عبد الله ركيبي بقوله: «فالنوع الأول -الاتجاه التاريخي- أسبق الأنواع ظهوراً، واستمر حتى بعد الاستقلال، وبالرغم من أن نصوصه قليلة مثل غيره من الأنواع الأخرى، فإننا نستطيع أن نتلمس فيه بذور المسرحية التاريخية التي تنشأ عادة في الظروف التي يشتد فيها الصراع بين القوميات المتعددة، أو بين الشعوب المضطهدة وبين المحتلين الأجانب، وكذلك حين تبحث الشعوب عن جذورها وانتمائها، وتسعى إلى إثارة النعرة في نفوس أبنائها، فتعود إلى ماضيها تستلهمه، وتكشف عن الفترات المضيئة فيه»<sup>iii</sup>.

ولأن الإنسان ميال بطبعه إلى التمسك بجذوره، والافتخار بتراث أجداده وآبائه، والكتابة في التاريخ القديم تستوجب الدراسة المعمقة والفكر المتقدم مع الوعي التام بمجريات الوقائع والأحداث، فإن الكاتب المسرحي الجزائري لم ينس أبداً تاريخ أجداده من حضارة قرطاجية وبطولة الإنسان الأمازيغي وإصراره على مقاومة المستدمر الدخيل الأجنبي، ولعل أول من تصدى لمثل هذه الموضوعات "أحمد توفيق المدني" في مسرحيته "حنبل" سنة 1951م، والتي قدمتها فرقة هواة المسرح العربي التي أنشأها "محمد الطاهر فضلاء".

أصدر أحمد توفيق المدني مسرحيته التاريخية النثرية "حنبل" قبل اندلاع الثورة التحريرية، و"حنبل" هو قائد وطني إفريقي ثار على الاستعمار الروماني وانتصر عليه في عدة مواقع، وطارده حتى مدينة روما نفسها، ولكن الرومان جددوا الهجوم عليه، فلم ير بداً من الصلح معهم تحت ضغط رجال السياسة من حاشيته وخيانة بعض أفرادها، ولقد تولى حنبعل سلطة البلاد "قرطاج" بنفسه، ولكن حين اشتد أمره وأخذ يعمل على تعويض ملك الرومان بإفريقيا تحرش هؤلاء به وأرادوا به السوء، فلم يسعه إلا السفر إلى الشام، حيث اشترك مع اليونان في استرداد أثينا التي كان الرومان قد استولى عليها.

ثم انتقل تحت ضغط الظروف السياسية إلى آسيا الصغرى، وهناك أخذ يعمل من جديد ضد روما بنشاط كبير، أثار الرعب في نفس قنصل روما العام في تلك المنطقة، وجعله يطالب حنبعل بعزم السلطان على تسليمه للرومان ثم شرب السم وأنهى حياته بشرف،<sup>iv</sup> وهكذا تنتهي المسرحية، وهي تعكس استماتة وبسالة شخصية تاريخية، وهي تكافح الاستعمار الروماني ولم ترض بالذل والهوان حتى الموت، وفي ذلك دعوة إلى الاقتداء بهذا النموذج المتميز في التضحية والتصدي والفداء ضد الاحتلال.

هكذا أراد توفيق المدني من خلال مسرحية مستوحاة من التاريخ المغربي القديم في أربعة فصول، وباعتماده على تاريخ البطل "حنبل" أن يقدم نداء ثوريا إلى الشباب الجزائري والعربي من أجل الاتحاد والثورة على الاستعمار فعليهم تقع المسؤولية، و"حنبل" رمز للمجد والجهاد والنضال وحب الوطن والتضحية والبطولة الفردية.

والمسرحية الأخرى "يوغرطة" لعبد الرحمن ماضي، تنطلق كسابقتها من تقديس البطولة الفردية ورمزيتها، حيث يحصرها المؤلف في بطل المقاومة الأمازيغية ضد الاستعمار الروماني ممثلا في شخصية "يوغرطة"، وهي مأساة في خمسة فصول تعرض لحياة أمير نوميدي سعى لإعادة مجد وطنه وتوحيده بعد أن قسمته روما إثر موت حليفها "ماسينيسا"، وذلك في سنة 113 (ق.م).

ومثل المسرحية الأولى ينهي عبد الرحمن ماضي مسرحيته بخطبة مطولة يلقيها "يوغرطة" على مسمع القوم وفيها يعلن استسلامه وهزيمته، ولكن إيمانه يوطنه جعله يؤكد أن لإفريقيا رجال أشداء في البطش والقوة وإن انهزم فهم سينتصرون، وهذه الأفكار أرادها المؤلف أن تكون النور الذي يضيء درب الشعب الجزائري في بداية الخمسينيات، حيث كثرت الوشائيات والخيانات بين الزعماء وقادة الأحزاب والرجال الذين يخططون للمقاومة والثورة،<sup>٧</sup> ولعل اختيار المؤلف لهذه الشخصية التاريخية لم يكن من أجل التاريخ لذاته، وإنما لإعطاء المثل والنموذج في الجهاد والكفاح ومقاومة العدو الدخيل من التاريخ القديم للمنطقة ذاتها.

## ثانيا - موضوعات من التاريخ العربي الإسلامي.

كان التاريخ العربي الإسلامي ولا يزال الملهم الأكبر للأدباء الجزائريين حين كتبوا مسرحياتهم التاريخية، ولا عجب في ذلك، لما يزرع به من أجداد ومفاخر وبطولات، فهو تاريخ آباءهم وأجدادهم، يحسون بالعزة والكبرياء تجاهه دائما، ولقد دعا كثير من النقاد إلى استلهاهم التاريخ العربي الإسلامي في الأعمال المسرحية لقرب هذه الموضوعات من العقلية العربية ومن ذهن القارئ العربي أيضا<sup>٧</sup>، ولقد جعل الكتاب المسرحيون من هذا التراث مادة أساسية لبعث الأمل في المجتمع الجزائري بعد خيبات الاستعمار وطمس له.

فكان الأبطال المختارين من التاريخ العربي والإسلامي، النموذج والمعادل الموضوعي للشخصية الجزائرية يمثلون البطولة والفداء والشجاعة والأنفة والنخوة، وغير ذلك من الشيم النبيلة العربية، فالنصوص المسرحية المقدمة قبل الثورة التحريرية توحى من عناوينها أن الكتاب اهتموا اهتماما بالغا

بالتاريخ العربي الإسلامي، نحو (الخنساء) و(أميرة الأندلس) و(حلاق بغداد) و(عنتره وعبله) و(امراً القيس) و(البرامكة)... الخ.

ثم إن معظم النصوص المسرحية المأخوذة من التاريخ الإسلامي ضاعت ولم يبق لها أثر لعدم اهتمام أصحابها بالتوثيق والطبع، وقد حفظ لنا التاريخ مسرحيات مقتبسة من التاريخ العربي الإسلامي،<sup>vii</sup> ومنها مسرحية الخنساء لمحمد صالح رمضان في ثلاثة فصول مستوحاة من التاريخ العربي تدور أحداثها حول الشخصية العربية المخضمة "الخنساء"، مثلت في تلمسان سنة 1950 ومدن أخرى بالجزائر، وقد وصفها الكاتب بأنها «مسرحية تاريخية أدبية في مدى تأثير التربية الإسلامية على النفس البشرية»<sup>viii</sup>.

والمسرحية مدرسية ألفها الكاتب ليقوم تلاميذ المدارس بأداء أدوارها حيث يقول: «أما الخنساء فقد كنت وضعتها في أواخر الأربعينيات لتلاميذ القسم التكميلي بمدرسة دار الحديث بتلمسان ومثلها طلاب وطالبات هذه المدرسة التي تتوفر على مسرح صغير في قاعة المحاضرات، مثلت ثلاث مرات بأسبوع واحد، مرتين للرجال ومرة للنساء، ونالت إقبالا واستحسانا بالغين»<sup>ix</sup>، ولعل مرد ذلك إلى الحزن الذي غلب على النص المسرحي كله، والذي كان هدفه إبراز مأساة "الخنساء" في حياتها. والمتلقي لنص المسرحية يكتشف رواية المؤلف للأحداث التاريخية وربطها بحزن "الخنساء" مدعومة بقصائد من الشعر الجاهلي والإسلامي، من أجل «خدمة الناشئة وتعليمهم أكثر من خدمة الفن المسرحي في مستواه الأعلى»<sup>x</sup>، بمعنى أن المؤلف يهدف من نصه هذا إلى عرض أخبار الشعراء والخلفاء والحكام وأخبار المسلمين وحروبهم ضمن حياة الشاعرة العربية "الخنساء" وحزنها.

وسار على هذا المنوال من استلهام التاريخ العربي الإسلامي، الشاعر محمد الأخضر عبد القادر السائحي في مسرحيته "نصيب الشاعر الزنجي"، حين يعود إلى أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية هادفاً إلى إظهار «نصاعة المبادئ الإسلامية التي لا تفرق بين الأبيض والأسود إلا بالتقوى»<sup>xi</sup>، حيث يطرد نصيب من قبيلة سيده ويبيع في الأسواق بتهمة تشبيهه بآبنة سيد كنانة.

فيلجأ العبد إلى أمير المؤمنين مدافعا عن مشاعره النبيلة، متجاوزا لوحة الأسود، ويسمعه أمير المؤمنين ويمشي معه ليزوجه محبوبته رغم أنف العشيرة والسادة، وفي ذلك إثارة صريحة من المؤلف إلى الألفة بين الرعية والراعي، وفيه أيضا دعوة للشباب الجزائري لكي يعبر عن أفكاره بطلاقة وحرية، وأن يثور ضد العادات السيئة والتقاليد البالية، خاصة وأن المسرحية كتبت عام 1963م، وهو فجر قيام

الدولة الجزائرية،<sup>xii</sup> وفي المسرحية محطات تاريخية أخرى، حيث يعرض الشاعر في الأندلس حياة ابن زيدون في عشقه وسياسته إلى أن يموت.

يضاف إلى ما سبق مسرحيات أخرى تاريخية تناولت التاريخ العربي الإسلامي بأحداثه وشخصياته نحو: مسرحية (المولد) و(الهجرة النبوية) لعبد الرحمن الجليلي، و(صلاح الدين) و(بطل قريش) و(ليلى بنت الكرامة) لمحمد الطاهر فضلاء، و(الكاهنة) لعبد الله ناقلي، و(ماليني أميرة الهند) لأحمد سقطة... وغيرها من المسرحيات التاريخية التي تهدف إلى إيقاظ الوعي الوطني عن طريق تقديم نماذج لشخصيات تاريخية أسهمت في تغيير مسار تاريخ أممها وفي فترات مختلفة من التاريخ الإنساني.

---